شعر الرثاء في ديوان ابن الرومي

د.فيصل سلمان مناحي
الجامعة المستنصرية/ كلية التربية/ قسم اللغة العربية

الملخص

شاعرنا ابن الرومي من الشعراء الذين كانت لهم بصمات واضحة في هذا المضمار يشهد لها التاريخ الأدبي بمصداقية رثائه ورقة ألفاظه وعذوبتها وكل صوره الاسترجاعية الانفعالية كانت معبرة عما يتصارع في أعماقه من حزن ولوعة عبرت عنها قريحته بشكل عفوي وسلس، لذلك قال الدكتور محمد مهدي البصير عن ابن الرومي: "فإنه مخلص كل الإخلاص في رثائه ذلك لأنه لا يرثي إلا مَن رسخ حبه في قلبه وعظم مكانه من نفسه

لذا نجد النصوص الرثائية في ديوانه الكبير قليلة وقد احصيتُها فكان عددها أربعة وعشرين نصاما بين قصيدة ومقطوعة بالموازنة مع شعره في المديح الذي يتصدر الديوان لأنه كان مصدر رزقه الوحيد، ومن ثم الهجاء الذي كان يعبرفيه عن غضبه من الزمان والناس الذين لم ينصفوه بعد ذلك يأتي العتاب معبراً عن حالة نفسية كانت مرتبطة بحياة الشاعر ثم الوصف ثم الرثاء.

ABSTRACT

Literary studies related to Arabic Islamic Abbasid ears varied similar to the studies to the studies of modem linguistic and literary phenomena. But the literature that preceded the fall of the Abbasid caliphate and followed the Tatars " invasion of the Islamic world till modern age was neglected. That literature was known as the literature of the middle ages. Unobgective views marked that period as a period of deterioration and darkness in spite of the fact that the literary heritage was not fully studied.

The were many remarkable poets at that period who were expert in language, literature, rhetoric, criticism, biographies, history as well as philology. Bahau l – deen Ali bin Issa al – Irbli was full of scientific research in all branches of human knowledge

المقدمة:-

على مر السنين لم تكن فلسفة الموت عملية انقطاع تام بين عالمين عالم الدنيا وعالم الآخرة، بل إنَّ التواصل والإدراك الحسي والروحي كان وما يزال موجوداً، وما قصائد الرثاء إلا واحدة من تلك الأساليب في التواصل مع الأموات وهناك طرائق مختلفة في التواصل منها دينية ومنها اجتماعية حملت في طياتها مضامين قدسية ونهجت لها طقوس فيها من الجلالة والهيبة ما يضمن أن العلاقة بين طرفين متضادين هي علاقة لم تنته بصورة كلية.

وشاعرنا ابن الرومي من الشعراء الذين كانت لهم بصمات واضحة في هذا المضمار يشهد لها التاريخ الأدبي بمصداقية رثائه ورقة ألفاظه وعذوبتها وكل صوره الاسترجاعية الانفعالية كانت معبرة عما يتصارع في أعماقه من حزن ولوعة عبرت عنها قريحته بشكل عفوي وسلس، لذلك قال الدكتور محمد مهدي البصير عن ابن الرومي: "فإنه مخلص كل الإخلاص في رثائه ذلك لأنه لا يرثي إلا مَن رسخ حبه في قلبه وعظم مكانه من نفسه"[1].

لذا نجد النصوص الرثائية في ديوانه الكبير قليلة وقد احصيتُها فكان عددها أربعة وعشرين نصاما بين قصيدة ومقطوعة بالموازنة مع شعره في المديح الذي يتصدر الديوان لأنه كان مصدر رزقه الوحيد، ومن ثم الهجاء الذي كان يعبرفيه عن غضبه من الزمان والناس الذين لم ينصفوه بعد ذلك يأتي العتاب معبراً عن حالة نفسية كانت مرتبطة بحياة الشاعر ثم الوصف ثم الرثاء.

أما الدكتور شوقي ضيف فيذهب إلى أبعد من ذلك حيث يقول: "كان ابن الرومي يجيد فن الرثاء، بحكم قدرته على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر، وأيضاً فإنه كان يستشعر في أعماقه حزناً ممضّاً، لأنه لا يأخذ حقوقه في عصره بالقياس إلى غيره من الشعراء الذين يتفوق عليهم تفوقاً، فكان شعوره بالبؤس والحرمان يضاعف حزنه وكأنما الحياة كلها أمامه كانت أحزاناً ومأتم"[2].

ولكنا نفاجأ بموقف غريب لانعام الجندي حيث قالت في ابن الرومي: "ومرثياته هذه هي قليلة على كل حال، تفتقر إلى العاطفة وإلى الصدق، على غير عهدنا بابن الرومي في أكثر شعره، ومع ذلك فإنَّ الموت نفسه يحرك في ذاته كوامن من الرهبة

[1] في الأدب العباسي،291.
[2] تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، 317،318.

من نهاية كل حي"[1]. والحقيقة إنَّ هذا القول ينافي قراءتنا لشعر الرجل واستقراء مضامين الرثاء في ديوانه فضلاً عما اثبته الباحثون الذين رجحنا آراءهم في هذا المضمار[2].

الصدق يتجلى في أروع مباهجه وعنفوانه حتى تتضح في نفسية المبدع صور تجربته ويقف متأملاً حيثيات أفكاره ويرتبها ترتيباً قبل صياغة النص كتابةً، بيد أن الانسيابية والسلاسة في الطرح تأتي نتيجة صراع أحداث وأفكار نفسية وأيضاً لا ننسى ان الصدمة والموقف في أحيان كثيرة يكونان مورد انشطارات لشهب كلامية هي وليدة اللحظة لكن الشاعر الحق مَن كان متعمقاً متأصلاً متروياً لأن التجربة الإنسانية هي الأخرى صراع داخلي وإسقاطات خارجية فمؤثرات المحيط لها دور مهم وفعال، وعليه فإنَّ أدوات الشاعر وملكته الشعرية وخصوصية التجربة لديه تمنح النص بُعداً فكرياً خلاقاً وتحلق في فضائه أرواح كائنات حية، وعلى هذا الاساس كان ابن الرومي. وفي المورد نفسه قال العقاد: "فمراثيه التي تدل عليه حق الدلالة المنصفة، وليست مدائحه التي كان يمليها الطمع والرغبة، أو أهاجيه التي كان يمليها الغيظ وقلة الصبر على خلائق الناس. ففي هذه المراثي تظهر لنا طبيعة الرجل، لا تشوبها المطامع والضرورات، ونرى فيه الولد البار والأخ الشقيق، والوالد الرحيم، والزوج الودود، والقريب الرؤوم، والصديق المحزون، ولا يكون الرجل كذلك ثم يكون –مع ذلك- شريراً مغلق الفؤاد، مطبوعاً على الكيد والإيذاء"[3].

أما إذا أردتُ أن أقدم الشاعر بنبذة مختصرة فأقول ما قاله الدكتور حسين نصار محقق الديوان: "عبث أن يحاول الإنسان تقديم مثل هذا الأديب، عبث أن يحاول أن يقدم أديباً مثل أبي الحسن علي ابن العباس بن جريج الذي اشتهر بابن الرومي أيقول أنه ولد سنة 221هـ/ 836م ومات في سنة 283هـ/ 896م، أم يقول شاعر الطبيعة في الأدب العربي، أو شاعر الهجاء الساخر، أو شاعر الحياة اليومية في عصره، أو شاعر الأوهام والأشباح، أو شاعر المزاج الحاد المتقلب، أو شاعر الإطالة والاستقصاء وتوليد المعاني"[4].

لعله من المفيد القول إن البحث يتناول الرثاء بشقين الرثاء الخاص وهو رثاء الشاعر لأهل بيته ومنهم أولاده وأمه وامرأته وأخوه وخالته وخاله، أما القسم الثاني من الرثاء فهو الرثاء العام الذي يتناول رثاء أهل البيت (عليهم السلام) ورثاء أهل البصرة ورثاء الأصدقاء ورثاء النفس الإنسانية.

أولاً:- الرثاء الحاص:

رثاء ابنه (محمد):

لعلنا ونحن نقف أمام هذه القصيدة لابن الرومي وهو يرثي ابنه الأوسط (محمد) نتذوق عذوبة اللفظة ورقة الرثاء وصدق المشاعر التي تختلج بها النفس الانسانية،اذ يسمو بالنص الشعري في مساحات مستويات الاسلوبية متداخلة مع بعض من خلال علائقية الصوت مع التركيب والدلالة ويمكن ملاحظة ذلك في الالفاظ الاتية (بكاؤكما-نظيركما) (المهدى- المهدي) (أوسط_واسطة) (قرب _قريبا) (وعيدها _وعد) فهي أكثر دلالة في المعاني حين تكون في سياقها العام لتدل على عمق العاطفة ومصداقية اللوعة المختزلة في هذه الأبيات التي تمثل شدة تعلق الشاعر وحبه لابنه وبيان حاله من بعده ولهفته عليه وسياق النص في الوقت نفسه يثبت مقدرة الشاعر في صنعته الشعرية،وحسن اختياره الألفاظ وادخالها في تراكيب موحية ،ومؤثرة ،تبدو عليها أثار الصنعة بارزة. لذلك نذكر هنا قوله:

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يُجدي ... فجودا فقد أودى نظيركُما عندي
بُنيَّ الذي أهدتهُ كفَّاي للثرى ... فيا عزَّة المُهدى وياحسرة المُهدي
ألا قاتل اللهُ المنايا ورميْها ... من القوم حبَّات القلوب على عَمْدِ
توخى حِمامُ الموت أوسط صبيتي ... فللّه كيف اختار واسطة العُقدِ
على حين شمتُ الخير من لمحاته ... وآنستُ من أفعاله آية الرُّشدِ
طواهُ الردى عني فأضحى مزارُهُ ... بعيداً على قُربِ قريباً على بُعدِ
لقد أنجزتْ فيه المنايا وعيدها ... وأخلفتْ الآمالُ ما كان من وعدِ
لقد ظلَّ بين المهد واللّحد لُبثُهُ ... فلم ينسى عهدَ المهد إذ ضُمَّ في اللحدِ[5]

نجد في هذه الصور تعبيراً إيحائياً ذا دلالات نفسية عكست واقع الشاعر تجاه ابنه وماهية العلاقة الترابطية التي يحملها النص الرثائي، تمثل الحزن واللوعة والألم العميق، إذ نشم رائحة الموت ووقع الفاجعة على ابن الرومي، فهو يبدأ قصيدته بمخاطبة عينيه ولعله يخاطب ولديه ويقول لهما: بكاؤكما دواء لعلتي قد يُشفي ويهون الأمر أو يقلل من اللوعة، لكنه لا ينفع لأن الذي مضى لا يرجع فالزمن لا يعود إلى الوراء، لكنه مع هذا يطلب منهما الاستمرار في البكاء، لماذا، لأن المفقود هو شبيهكما ونظيركما في المنزلة في نفسي، فهو يصور كيف وارى ولده في التراب ودفنه بيده وهو العزيز المُقرب لديه ويستخدم هنا حرف النداء (يا) ويعمد الى التكرار لبيان الحسرة والألم، ها هو الردى يخطف منا الأعزاء وكل يوم يفاجئنا بانتزاعه عزيز، لعل البيت الرابع هو قمة القصيدة والوقفة التي تم البناء عليها.

فهو يشبه أبناءه بالقلادة و(محمد) هو واسطة العقد دلالة على منزلته وعظم مكانته، فالشاعر يهاجم الموت ويذمه لانه يفاجي الاحبة ويسرق منهم اغلى واعز ما يملكون ، لاسيما وأنه بدأ يستشرف الخير في ابنه وهو يكبر أمامه في جريه ونومه وقد أحب كل

---

[1] دراسات في الأدب العربي، 78.
[2] إشارة إلى محمد مهدي البصير وشوقي ضيف.
[3] ابن الرومي حياته من شعره، عباس محمود العقاد، 37.
[4] ديوان ابن الرومي، كلمة التحقيق، د. حسين نصار 5/1.
[5] ديوان ابن الرومي: 624/2.

تصرفاته، لكن الردى لم يمهله كثيراً فأصبح بعيداً على الرغم من أن قبره قريب، وبرحيله ذهبت الآمال والأمنيات وغدوتُ لا أفرق بينهما،فقد أنزلته في لحده من مهده دلالة على سرعة قدوم الموت. ثم ينتقل إلى صورة أخرى:

ألح عليه النَّزف حتى أحالَـهُ إلى حُفرة الحاديَّ عن حُمرةِ الوردِ
وظلَّ على الأيدي تساقط نفسُه ويذوي كما يذوي القضيب من الرندِ
وإني وإن مُتِّعْتُ بابني بعده لذكره ما حنَّت النِّيبُ في نَجدِ
وأولادنا مثل الجوارح أيُّها فقدناه كان الفاجعَ البيّن الفقدِ[1]

فالشعور النفسي بوقع المصيبة وشدة الألأم تعكسه الدلالة الإيحائية التي صورها ابن الرومي في النص وهو يقف أمام ابنه الذي ينزف دماً، ووقع هذا الفعل (ألحَّ) وشدته وكيف أن النزيف لا ينقطع، نحن أمام لوحة لونية صفراء بعدما كانت حمراء متخذا منها دلالات الصحة والسقم، فالشاعر يعبر عن الذبول بالسقوط وكأنه يسقط من مرتفع عال وينضوي، ثم يستدرك بذكره ابنيه الآخرين إلا أن ذكراه لن تمحى ولا تغيب فهو يشبه حاله بتلك النوق المسنة التي تبقى تحن إلى فصائلها، فحنينه هو حنين تلك النوق. أما الأولاد فهم مثل الجوارح كلما فقدنا جارحة فقدناها إلى الأبد لا يمكن تعويضها، ثم يتساءل بعد ذلك ويقول:

هل العينُ بعد السمع تكفي مكانَهُ أم السمعُ بعد العينِ يُهدى كما تَهدي
لعمري لقد حالت بي الحالُ بعدهُ فياليت شعري كيف حالت به بعدي
ثكلتُ سُروري كلّه إذ ثكلتُـهُ وأصبحتُ في لذات عيشي أخا زُهدِ
كأني ما استمتعتُ منك بنظـرةٍ ولا قُبلةٍ أحلى مذاقاً من الشّـهدِ
كأني ما استمتعت منك بضـمّةٍ ولا شَمّـةٍ في ملـعبٍ لك أو مـهدِ[2]

يبدأ النص هنا بجدلية وثنائية تضاديتين مع استعمال مقصود لحاستي البصر والسمع (مَنْ بعد مَنْ) ومن خلال الاستعانة بحرفي الاستفهام (هل، أم) عوضاً عن كل أدوات الاستفهام الأخرى،أراد بذلك التركيز على التصديق اكثر من التصور ثم يأتي القسم ليحمل دلالة التؤكيد على ما الت اليه الحال بعده والثنائية (حالت بي-حالت به) وأيضاً (بعده-بعدي)،تدل على الاستمرارية والمشاركة والفاعلية ولعله أصبح زاهداً في هذه الدنيا لأنه ثكل سروره، وأضاع وفقد كل فرحه حين فقده فهو فرحه كله، فما أعظم الإنسان وما أعظم مصيبته حين يقضي العمر كله حزناً ولعل الانعطاف والعودة للتشبيه ثانية مرده صور استراجاعية فرضت على الشاعر البوح بها فهو يقول كأني ما التذذتُ واستمتعتُ برؤيتك ولا أجمل وأعذب من تلك القُبل التي كانت أحلى من العسل، ولا حين ضممتُكَ إلي ومتعتُ صدري باستراحة منك ولا شممتك في مهدك، ومكانك أيَّ كان،فهي صور حسية مفردة بصرية وشمية ولمسية وذوقية،ولقد تحققت جمالية النص في تزامن الحواس وترادفها وعلائقيتها المتواصلة مع الحدث الكبير، على أنه يختم القصيدة بخطاب موجه بالاسم الصريح لولده (محمد) بقوله:

مُحَمَّد: ما شيءٌ تُوهِّم سلوةً لقلبي إلا زاد قلبي من الوجدِ
أرى أخويكَ الباقيينِ فإنما يكونان للأحزانِ أدرى من الزندِ
إذا لعبا في ملـعبٍ لك لـذّعا فؤادي بمثل النار عن غير ما قصدِ
ومن كانَ يستهدي حبيباً هديةَ فطيفُ خيال منك في النومِ استهدى
عليك سلامُ الله مني تـحيةً ومن كل غيثٍ صادق البرقِ والرعدِ[3]

إنَّ جانب الوضوح والإيصال هو النمط الغالب على النص الرثائي لأنه ينطوي على جملة أفكار ومواقف ورؤى يراد التنفيس عنها وبثها للآخرين، لأجل خلق مشاركة في التفكير والتفاعل والتقييم بصورة جدية في تأمل النتاج الذي يبتعد عن التلقي السلبي، من هنا نستطيع القول بأننا نجد أسلوبا مركزيا تتمحور حوله أكثر من دلالة وصور حيوية فاعلة استراجاعية ومشهدية وتأملية لكن كل ذلك يتم ضمن إطار موضوعات محددة.

رثاء ابنه (هبة الله):

ابن الرومي يرثي ابنه الثاني (هبة الله) الذي فارق الحياة فتى يافعاً فيبكيه ويطلب من المتلقي مشاركته أحزانه عبر أساليب الطلب التي برع المبدع في استعمالها ولاسيما منذ الأبيات الأولى من خلال حروف النداء والاستفهام، لذا فالعين لا يغمض لها جفن ولا تقر لها غفوة بل هو في صحو وحزن دائمين لأن الكفن الذي ضم جسد ابنه ضم حزنه الأبدي، ثم بعد ذلك يبدع بالصورة الفكرية (الذهنية) حيث يرى دنياه ما عادت له وطن، إنما مقام ولده هو الوطن، هاهو يؤكد صور الألم التي تمتلكه فليس له مؤنس في النهار ولا يستطيع النوم والرقود ليلاً، لأنه يرى الأولاد فتنة في الحياة الدنيا ومحنة حين يرحلون، هنا نلحظ ثقافة الشاعر القرآنية لأنه اقتبس قوله تعالى(واعلموا أنَّما أموالكم وأولادكم فِتنةٌ وأنَّ اللهَ عندهُ أجرٌ عظيم) [4] ظهر جليا حسن توظيف الشاعر للنص القراني في تعزيز دلالة النص وأخيراً ثقافته الأدبية حيث يقول انه لم يُبكيه الوقوف على الأطلال والدَّمن على عادة الشعراء الجاهليين بل أبكاه ابنه الذي فجع به.

---

[1] نفسه: 625/2.
[2] ديوان ابن الرومي: 626/2.
[3] نفسه 627/2.
[4] الأنفال/ 28.

ياهل يخلّد منظرٌ حَسنٌ — لمستَّمع، أو مخبرٌ حسنُ
أهل يطيبُ لمقلةٍ وسنٌ — فيقرُّ فيها ذلك الوسنُ
أبُنيّ إنك والعزاءَ معاً — بالأمس لُفَّ عليكما كفنُ
أبُنيّ إن أحزن عليك فلي — في أن فقدتُك ساعة حزنُ
ما أصبحت دنياي لي وطناً — بل حيث دارُك عندي الوطنُ
ما في النهار وقد فقدتك مِنْ — أنس ولا في الليل لي سكنُ
أولادنا أنتم لنا فِتنٌ — وتفارقون فأنتم مِحنُ
أبكاني ابني إذ فجعتُ به — لم تُبكني الأطلال والدِّمنُ[1]

وفي موضع آخر من الديوان يرثي (هبة الله) بتوليد معان جديدة تختلف عن تلك التي طرحها في رثائه السابق، نجد صورة تحمل عمق الألم الذي يعتصر فؤاده وفداحة اللوعة التي تمزق كيانه، فهو يُشخص الصبرويجسده ويمنحه صفة اللؤم حين يساعده لذا لا يريد عون الصبر وإذا تسلى يوماً فهذه السلوة يعدها غدراً لذا فهو يطلب من السلوان والصبر الابتعاد عنه كي يبقى في حزنه السرمدي:

شَجا أن أروم الصبر عنك فيلتوي — عليَّ، ولؤمٌ أن يساعدني الصبرُ
فياحَزني أن لاسلَو يطيعني — وياسوؤتا من سلوتي إنها غدرُ[2]

رثاء ابنه الثالث:

وهاهي الأحزان والمصائب تتوالي على الرجل فنراه يرثي ولده الثالث ويقول ان النوم رحل عنه لأن همًّا قد خيّم عليه ليلاً وأبقاه حتى الصباح وهو يلحظ النجم الذي رحل هو الآخر، ثم يخاطب عينيه أن تجودا بالدموع حيث أنه منح الأرض ابنه الذي هو أغلى من الدموع، بيد أنه يغبط نفسه ما أشدها وما أقساها حين تحملت الفاجعة المؤلمة وهي دفن ابنه في التراب ثم يصرح بالصدق كله وبما تحمل المفردات من مكابدات داخلية إذ يرى الدموع هي التي تطفئ لوعته ولهفته على ولده فإذا لم تساعده اشتّد لهيب الأسى والحزن في فؤاده:

حماهُ الكرى همٌّ سرى فتأدَّبا — فبات يداعي النجم حتى تصَّوبا
أعينيَّ جودا لي فقد جدتُ للثرى — بأكثر مما تمتعان وأطيبا
بُنيَّ الذي أهديته أمس للثرى — فلله ما أقوى قناتي وأصلبا
فإن تمنعاني الدمع أرجع إلى أسى — إذا فترت عنه الدموعُ تلهبّا[3]

ثم يخاطبه وهو البعيد الذي لا يعود بأن أباه يغص بالماء الزلال لفقده وهو يتحسر ويأسف لأنه لبس ثوب المنية قبل ثوب الشباب.فهي صورة فردية لمسية استعارية جسد فيها الموت شخصا وكذلك حقبة الشباب وهذا يدل على فقده ابنه وهو صغير.

ياغائباً عني بعيد الإياب — نغَّصني فقدُك بردَ الشراب
لهفي على لُبسك ثوب البلى — من قبل إخلاقك ثوبَ الشباب[4]

رثاء أمه:

هاهو ابن الرومي في قصيدته الميمية الطويلة (205 ابيات) وهي أقدم قصيدة لشاعر عربي في رثاء أمه[5]، يبث أحزانه بموت أمه فيرثيها وتتمثل عاطفة الوفاء والمحبة للأمومة التي طويت صفحتها برحيل ذلك الصدر الحنون، ولا أحد يستطيع أن يخفف عنه مصابه إلا الله، على الرغم من الزمن وما يحمل من طول أو قصر، ويعرج على الصبر وكظم اللوعة التي تحرقه وأنه سيبقى وفياً لذكراها وزيارة قبرها:

رُميتُ بخطبٍ لا يقوم لمثلهِ — شروري ولارضوي ولا الهضبُ من خيم
رزيئة[6] أمّ كنتُ أحياء برومها — واستدفعُ البلوى واستكشفُ الغُمم
وما الأمُّ إلا امَّة في حياتها — وأمُّ إذا فادتْ وما الأمُّ بالأمم
أقولُ وقد قالوا: أتبكي كفا قدٍ — رضاعاً وأين الكهلُ من رافع الحَلم
هي الأمُّ يا للناس جُرِّعتُ ثُكلَها — ومن يبكِ أمّاً لم تُذم قطّ لا تُذِم
إلى الله أشكو جهد بلواي إنه — بمستمع الشكوى ومستوهب العصم
غدا الدهرُ لي خصماً وفي مُحكمَّاً — فكيف بخصم ضالع وهو الحَكَم
يجور فأشكو جوره وهو دائباً — يرى جَورهُ عدلاً إذا الجُور منه عم[1]

---

[1] ديوان ابن الرومي: 2514/6.
[2] نفسه: 1004/3.
[3] ديوان ابن الرومي: 244/1.
[4]: نفسه /348.
[5] مجلة كلية الآداب/ جامعة الإمارات- العدد الثاني، سنة 1986، ص93، المنهج والظاهرة/ دراسات في التراث الأدبي، إبراهيم محمد حور، ص197.
[6] مختار الصحاح: ص240، الرَّزيئة بالمد و"الرَّزِية" المُصيبة والجمع (الرَّزايا) وقد (رَزأتُه رزيئةٌ) أي أصابتْه مُصيبة.

إنَّ استعمال لفظة (رميت) لها دلالة معنوية على عظم الفعل وفداحته فلا الجبال الشاهقة المعروفة ولا الهضاب تتحمل ذلك، ثم إن مصيبة الأم هي مصيبة كبيرة لا تضاهي الحياة التي أحيا بها، ولعل من المفيد ذكر قدرة الشاعر في استعماله للألفاظ في البيت الثالث فالأمُّ هي الرحمة بوجودها وهي ضَرب على أمِّ الدماغ حين فقدها لذا فهو استعمل اللفظة نفسها مع اختلاف في الحركات فأعطت معنى آخر وهو أسلوب غاية في الجمال، ويبين أنه فقد أمه وهو كبير وهذا لا يعني أنَّ الكبير لا يبكي على أمه لأنه لا فرق بين الكبير أو الصغير لأن الأم هي الحياة كما مر الذكر، ويعرج على الدهر الذي ظل على مدار الزمن هو الرمز للشعراء حين يستصرخون الظلم أو اللوعة في الأعماق فكيف إذا كان الخصم هو الحَكم، لذا يقول الشاعر (أشكوه ظلمهُ) لكنه يرى عكس ما أرى فهو يرى أنه عادل مع الجميع وقد اجاد الشاعر استعمال حرف الميم الذي له دلألة معنوية تتناسب مع الالم الذي يعتصره....

وفي مقطع آخر من القصيدة يقول ابن الرومي:

فيا أملاً أن يَخْلُدَ الدَّهر كُلّهُ ... سل الدهرَ عن عادٍ وعن أختها إرم
يُخبِّرك أنَّ الموت رسمٌ مؤبدٌ ... ولن تعدوَ الرسمَ القديم الذي رسم
رأيتُ طويل العُمرِ مثل قصيره ... إذا كان مُفضاه إلى غايةٍ تُؤَم
ألا كلُّ حيٍّ ما خلا الله ميِّتٌ ... وإن زعم التأميل ذو الإفكِ ما زعم[2]

هذا النص يظهر مدى قدرة الشاعر على استعمال المخزون الثقافي الواعي لديه فكان رافده هنا القرآن الكريم من خلال قوله تعالى(ألم ترَ كيف فعلَ ربُّكَ بعادٍ. إرمَ ذاتِ العماد. التي لم يُخلَق مثلُها في البلاد).[3] الذي نهل من ينابيعه هذه الصورة وسحرها على رؤيته من خلال تناول هذا الموضوع وعلاقته بالتجربة الإنسانية، على أن مجموع هذه المفردات كلها تصب في بوتقة النهج الإنساني الذي اختطه ابن الرومي لرسم ملامح الألم الذي يعتصر أعماقه، لكنه مؤمن بالحقيقة الثابتة التي لا جدال فيها وهي مسيرة الإنسان من المهد إلى اللحد وإن طالت أو قصرت المدة الزمنية.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف حاله:

عزيزٌ علينا أن تموتي وأننا ... نعيش ولكن حُكِّم الموتُ فاحتكم
ولو قَبِلَ الموتُ الفداءَ بذلتهُ ... ولكنما يعتامُ رائدهُ الصيمّ
أيا موتُ: ما أسلمتُها لك طائعاً ... هواك، فمالي زفرتي زفرةُ الندم
سأبكي بنثر الدمع طوراً وتارةً ... بنظم المراثي[4] دائم الحُزن والوكم
وتسعدني نفسي على ذاك سَمحةً ... بما نثر الشجُو الدخيل وما نظم
بنا ناظري ياأمُّ عن كُلِّ منظرٍ ... وسمعي عن الأمواتِ بعدك والنغم[5]

صورة الخطاب المزدوج في هذه اللوحة تحمل في طياتها حزناً وشجناً عميقين، فليس في اليد حيلة فالموت هو الحكم بيد أن الحيرة قد دبت دبيبها في نفسه فهو يخاطب الموت تارةً وتارة يخاطب أمهُ، فينادي الموت، لكنه يأبى، ثم يناديه وكأنه كائن حي محسوس بأنك أخذتها رغماً عني ثم يعرج النص إلى حوار النفس فيسالها لم الندم فأنا لستُ طائعاً له ومع هذا سأبقى أبكي طوراً ولا انقطع عن ذلك لأن النظر لا يحلو له منظر ولا السمع يأنس لنغم بعد اليوم.

ثم يكمل لوحته الفنية ويختم بالحكمة والموعظة الحسنة إذ يقول:

يريد المُعِّزي بُرء كلمي بوَعظه ... ولم يكُ غير الله يُبرئُ ما كَلَمَ
هو الواهبُ السلوانَ والصبرَ وحدَهُ ... لذي الرّزءِ والمُهدي الشِّفاء لذي السقم
ولست أراني مُذهلٍ عنك مُذهلٌ ... يد الدهر إلا أخذهُ الموت بالكظم
وأظلمت الدنيا وبات ضياؤها ... نهاراً وشمسُ الضَّحو حَيرى على القِمم
وأجدبت الأرضُ التي كنتِ روضةً ... عليها وأبدت مَكلماً بعد مُبتَسم
وقامت عليك الجنُّ والأنسُ مأتماً ... تُبكّي صلاة الليل والخمص والهضم
رجعنا وأفردناكِ غير فريدةٍ ... من البِّر والمعروفِ والخيرِ والكرم[6]

فالمعزون يريدون شفاء جرحي بوعظهم ولكني أعلمُ أن الله وحده القادر على ذلك ومع هذا سأكظم لوعتي ولهفتي وإن اظلمت الدنيا وخيم الليل على النهار فالأرض أصبحت قاحلة بعد أن كانت بستاناً. وها هي الدنيا بإنسها وجنَّها تندبك ليل نهار وتقيم مجالس العزاء، عدنا وتركناك وحيدةٌ في لحدكِ لكن الحقيقة أنك لست وحيدة فالخير والمعروف والكرم والعمل الصالح معك.

رثاء امرأته:

ابن الرومي حين يرثي امرأته نجدهُ وفياً مُحباً شغوفاً عليها لكنه في الوقت نفسه حائراً ما بين البكاء والصبر أو ترك كل ذلك، لأن فلسفته تقتضي أن الأسى والدموع والشجن هي مثل الداء والدواء وعليه فهو لا يريد دواء لدائه ولا يريد الشفاء من جرحه

---

[1] ديوان ابن الرومي: 2300/6.
[2] ديوان ابن الرومي: 2302/6.
[3] الفجر/ 6،7،8.
[4] مختار الصحاح: ص233 (رثيتُ) الميتَ من باب رَمَى و(مرثَية) أيضاً و(رثوته) من باب عَدَا إذا أبكيته وعددتَ محاسنَه وكذا إذا نظمْتَ فيه شعراً.
[5] ديوان ابن الرومي: 2309/6.
[6] ديوان ابن الرومي: 2310/6، 2311، 2312.

من باب صدق الوفاء وصحته وإخلاصه لزوجته، لذا فإن ترك البكاء أوجب حتى لا يكون هذا علاجا لمصيبته، لأن الفاجعة الكبرى هي عدم مقدرته على الحياة من بعدها:

عينيَّ شُحَّا ولا تَسُحَّا جلَّ مُصابي عن البكاءِ
تركُكُما الداءَ مُستكاً أصدقُ عن صحةِ الوفاءِ
إنَّ الأسى والبكاء قِدما أمرانِ كالداء والدواءِ
وما ابتغاءُ الدواءِ إلا بُغي سبيل إلى البقاءِ
ومُبتغى العيش بعد خلٍ كاذبة خُلّةَ الصفاءِ[1]

إلا انه ينتقل بعد ذلك إلى قول آخر فهو يطلب من دموعه أن تنهمر وتدر على خديه ويزيد من البكاء لأن نصيبهما من الرؤيا والنظر قد أضحى بعيداً أما نصيب الفؤاد فالوجع الدائم:

أعيني جودا بالدموع لفقدها فما بعدها ذخر من الدمع مذخورُ
نصيبكما منها الذي فات فابكي فأما نصيب القلب منها فموفورُ[2]

وفي نص آخر يبكيها بكاءً لا ينقطع وهو لا يرضى بأي عذر من عينيه، إنه يعمد إلى الذوبان في الحبيب لأن قلبه كُلم والمصيبة مشتركة بين الفؤاد والعينين، ثم إنه لا يريد لأحد غيره أن يزايد عليه، لذا يحرص على أن يدمي عينيه عليها فيعمد الى التكرار في الالفاظ والحروف من اجل صياغة موسيقى منسجمة والواقعة الاليمة التي يعيشها بعد فراق الحبيب:

عينيّ جودا على حبيبكما فالسجل فالسجل من حَبيبكما
لا تُجمدا لات حين معذرة مالم تذوبا لمستذيبكما
فاستغزرا دَّرة السؤال على بدرٍ كما بلَّ من قضيبكما
هذا فؤادي والرُّزء رزءكما تبكى له عيني مستثيبكما[3]

رثاء أحيه:

وجدناه يرثي أخاه ولا يذكر أباه لأنه فقد والده وهو صغير السن فتولى أخوه تربيته ورعايته لذا فهو يبكيه بحرقة وألم لأنه فقد السند والعمد الذي يعتمد عليه، فإن كانت الأيام تساعد على النسيان فإنَّ حرقة قلبه وحزنه وشدة لوعته، كل ذلك اعتراه اول الامر ولكن ما يسليه أن الزمن هو الذي يقرب بينه وبين اخيه.

وتُسليني الأيامُ لا أنَّ لوعتي ولا حزني كالشي يُنسي فيعذبُ
ولكن كفاني مُسلياً ومُعزّياً بأنَّ المدى بيني وبينك يقربُ[4]

نجد النص هنا يجري على السليقة والفطرة ومعان توحي بدلالات حياتية لها خصوصية مرتبطة بالمبدع مباشرة مع أن أهم سمات النص السهولة والوضوح والعبارة الرصينة الجزلة التي تمنح النتاج الأدبي الأنموذج الفني الجميل في إيصال المعنى وتحديده. وفي إحدى الأيام زار قبر أخيه فوجد شقائق النعمان قد نبتت على قبره فأنشأ يقول:

قالت شقائق قبره وترب أخرسَ ناطقُ
فارقتَه ولزمتُه فأنا الشقيق الصادقُ[5]

الصورة الاستعارية هنا نهضت بدلالتها والحوار جاء معبرا عن شدة ارتباط الانسان بالطبيعة.

رثاء حالته:

يظهر عواطفه ومحبته ومشاعره الصادقة تجاه خالته في أبهى صورة بيانية تشبيهية كأنه يتحدث عن أمه وليست خالته فلا فرق بينهما فخسارته بفقدها كبيرة كأنه بلا جناح بعدها، لعل النص ولاسيما في بدايته يفصح عن حكمة وقناعة وإيمان وأيضاً نصل إلى أن الشاعر قال مرثيته بعد حين من الزمن فهي ليست عاطفة موقف بل صورة صادقة لإحساس داخلي يحركه الوجدان:

ألا ليست الدنيا بدار فلاح بعينيك صرعاها مساءً صباح
لنا من كلا العصرين ساق كلاهُما يدور فيسقينا بكأس ذُباح
أراني وأميَّ بعد فقدانِ أختها وإن كنتُ في رفهٍ بها وصلاح
كفرخ قطاة الدوّ بان جناحُها فبات إلى حِضنٍ بغير جناح[6]

رثاء حاله:

كان له خال وحيد وقد رحل عن الدنيا وهو شاب . ومن خلال شعر ابن الرومي الذي يفصح عن علاقته القوية مع أهل أمه فهو يرثيه بطريقتين طريقة المدح وطريقة البكاء وفقده الذي سبب خسارة عظيمة للرجل حيث كان يعتمد عليه في شؤونه مع ذكر فضائله فهو شاب كالعذراء في خدرها كناية عن البراءة والطهارة والشفافية التي كان يحملها ولكنه في الوقت نفسه كالأسد المغوار الشديد في دفاعه عن عرينه دلالة الشجاعة والقوة وهو لم يؤذ أهل بيته ولم يعتد على جاره وإنَّ المولى حين دعاه لبى النداء

---

[1] نفسه:79/1.
[2] نفسه: 2130/5.
[3] ديوان ابن الرومي: 2130/5.
[4]: نفسه 1716/4.
[5] نفسه: 540/2.
[6] نفسه: 540/2.

مستبشراً فرحاً مسرعاً دلالة على الإيمان وفرحة اللقاء وهكذا تتوالى الصور البيانية ويعمد إلى فرشاته وألوانه فها هو خالـه أبيض الوجه عند الموت مثل انبلاج الفجر وهو فرِح والشاعر حزين يبقى في انتظاره العمر كله:

رزيَّةُ خالٍ كان للدهرِ جُنَّةً ... إذا الدهر أنحى مُرهفات شفاره
وكان إذا عُدَّ الخـؤول فقُدِّدت ... مَساعيه لم تغض الجُفون لعاره
فتى كان كالعذراء في ظل خدرها ... وكالأسد الرّئبال في ظل داره
بنفسي مَن لم يـؤذنـا بأنينـه ... ولم يؤذِ جارٍ بيتـه بـجواره
حـبيبٌ دعاه مستزيداً حبيبُـه ... فخفَ له مستبشراً بمـزاره
تبلج عـند الموت وأبيض وجهه ... تبلّج ضوء الفجر عند انفجاره
ومن ذا تظلُّ النفسُ عند مغيبـه ... معلّقـةَ آمـالها بانتـظاره[1]

ثم يصعد درجة غليان العاطفة ويبوح بالأسى الذي هز كيانه ويمنح التاريخ حقائق ومعلومات لم يستطع أدباء ذلك العصر تسجيلها عن الشاعر لكن نصوصه الشعرية قالت عنه الكثير:

ألا بؤس للأمِّ التي هد رُكنها ... بواحدها المُخلى عراصَ دياره
ويا بؤس للأخت الشقيَّة بعده ... من الحَزَن الباقي وطول استعاره
وكنت إذا استنجدتُه فدعوتُه ... دعوتُ نصيراً نصرُه كانتصاره
فوالله لا أنساه حتى أرى له ... شبيـها على أسبـابه ونجـاره
عليك سلام الله حياً وميتاً ... تباشـرت الموتى بقرب جواره[2]

ثانياً:- الرثاء العام:-

رثاء أهل البيت (عليهم السلام):

يمكن القول إنَّ صيرورة النص الأدبي وعملية اكتماله سوف تشكل امتداداً طبيعياً لنفس إنساني متفاعل مع محيطه ومع كيانه، لذا يصبح العمل الإبداعي جزءا مهما وحيويا من كيان ذلك الفاعل وعلى ضوء ذلك، من هنا يأتي تقييمنا للكشف عن ملامح الارتكاز الروحي للنص مع صاحبه ومديات الصدق فيه، الواقع انَّ ابن الرومي ومن خلال دراسة ديوانه لم ينكر الدين "لكنه كان في تقواه طوع الإحساس الطارئ وكانت عاطفته الدينية خاضعة لفلسفة الحياة؛ وكان ابن الرومي إلى ذلك شيعيّاً يوالي العلويين، ويتشيع لهم عن عقيدة وهوى ويأمل الوصول عن طريق هذا التشيع إلى مستقبل خير من الحاضر وأدنى منه إلى كشف الظلامات ورد الحقوق"[3]. لذا "فليس الشعر عنده عبثاً ولا لهواً بل هو غاية الجد وليس مطلبه بالسهل الهين بل هو مغاصٌ في دَرِكِ اللُّجَّة من دون دُرِّها الخطرُ"[4].

أنا أرى أنَّ البيئة هي التي ترسم هيكلية النص وتمنحه الروح لأن لها القدرة الفوقية في التعامل مع الحدث، لأن الإبداع والخلق مهما استطاعا أن يخترقا الأجواء يبقيان ضمن مدى هذه الهيمنة وإن جنحا فالروح ملازمة لهما.و لما كان الشاعر على تواصل وثيق وله علاقة راسخة بمحيطه فتصبح شيئا طبيعيا مسألة التسليم . لأنه من دون محتوى الإطار الذي يجمعه فهو لا شيء. فقوته وإبداعه هي تلك العلاقة الصحيحة مع المجتمع. لذا نجد ابن الرومي في جيميته الطويلة (111 بيتا) يعبر عن موقف عقائدي وفكري وهو يرثي أبا الحسين يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) العلوي، الذي ثار أيام المتوكل والمستعين واستولى على الكوفة، ثم تغلب عليه محمد بن عبد الله بن طاهر وقتله سنة (250هـ):

أمامك فانظر أيَّ نهجيك تنـهجُ ... طريقان شتى: مستقيمٌ وأعوجُ
ألا أيّهذا الناس طال ضـريركم ... بآل رسول الله فاخشوا أو ارتجوا
أكُلَّ أوانٍ للـنبي محـمدٍ ... قـتيلٌ ذكيّ بالـدماءِ مُضـرَّجُ
تبيـعون فيه الـدين شرَّ أئمةٍ ... فـلله دينُ الله قد كـاد يمْـرَجُ
بني المصطفى: كم يأكل الناس شلوكم ... لـبلواكمُ عـما قـليلٍ مُـفرَّجُ
أمـا فيـهمُ راع لحـق نـبيـه ... ولا خائفٌ مـن ربه يتـحرجُ
لقد عمـهوا ما أنـزل الله فيـكم ... كأنّ كـتاب الله فيـهم مُمَجْمَجُ
أبعدَ المُكنَّى بالحسـينِ شهـيدكم ... تُضـئ مصابيحُ السماء فَتُسرجُ[5]

يُشعرك النص بالإحساس النفسي والانفعال الوجداني الصادقين، كذلك يفصح عن منهج ورؤية قد آمن بها الشاعر، ومنذ الوهلة الأولى التي يطل بها علينا فخطابه مطلق والعامل الديني الذي يحرك النص ذو تأثير مباشر في النفوس، أيضاً الثقافة القرآنية عنده يجسدها في البيت الأول، متأثراً بقولـه تعـالى "فهديناه النجدين"[6] فالطريق الصحيح هو نهج الرسول وآل بيتـه الأطهار، أما الطريق الأعوج فهو محاربتهم والميل عنهم، لذا فهو يُنبههم ويحذرهم ويذكرهم ويخشى على دين الله الاندثار، ويخاطب آل البيت

[1] ديوان ابن الرومي: 1131/3.
[2] نفسه: 1133/3.
[3] تاريخ الأدب العربي/ حنا الفاخوري، 549.
[4] ابن الرومي: حياته وشعره/ ابراهيم عبد القادر المازني،102.
[5] ديوان ابن الرومي: 492/1.
[6] البلد/ 10.

بـ(بني المصطفى) أي يا أبناء النبي محمد لابد من الفرج لأن الله معكم وأنتم حجة الله في أرضه، فهولاء القوم إن لم يراعوا حقا للنبي الا يخافون المولى عز وجل أم عيونهم عميت عما أنزله الله فيكم من حجج وآيات.

ثم يرثي يحيى ويصفه بالشهيد ويتساءل هل "تُضيء مصابيح السماء فتسرج" بعد رحيله، ويمضي في مرثيته بقوله:

أبيتُ إذا نام الخلُّ كأنما تبطن أجفاني سيالٌ وعوسجُ
أيحيى العلا لهفي لذكراك لهفةً يباشر مكواها الفؤاد فينهجُ
أحين تراءتك العيونُ جلاءها وإقذاءها أضحتْ مراثيك تُنسج
فإني إلى أن يدفن القلبُ داءه ليفتلني الداءُ الدفين لأحوجُ
عفاءٌ على دارٍ ظعنت لغيرها فليس بها للصالحين مُعرَّجُ
ألا أيها المستبشرون بيومه أظلت عليكم غُمةً لا تفرَّجُ[1]

ها هو الشاعر يبكي هذا العلوي الثائر الشهيد بكاء ليس له انقطاع فكأن الشوك الكثيف قد أحاط بعينيه وجعل الأجفان لا تستطيع النوم والإغماض، بعد ذلك يخاطب يحيى بقوله ما كادت العيون أن تسعد برؤياك والتمتع بالنظر إليك إلا أصبحت تندبك وترثيك، لذا فسوف أحزن عليك إلى أن يدفن القلب، دلالة الموت ويخاطب الحياة التي ظلمت هذه الكواكب بأن ليس فيها مقام للصالحين فأصبحت سرج ظعن لغير الصالحين. ويقول لهؤلاء القوم المفسدين الذين اعتدوا على يحيى وآبائه وأجداده من قبل بأن لهم الهمَّ الدائم والخزي والعار إلى قيام الساعة.

ثم ينتقل إلى رسم سيناريو شجاعة المرثي ويجعلها مشعة بالحركة فيصفه بقوله:

كأني به كالليث يحمي عرينه وأشباله لا يزدهيه المُهَجْهَجُ
يَكرُّ على أعدائه كَرّ ثائرٍ ويطعنهم سُلّكى ولا يتَخلّجُ
كدأبِ عليٍّ في المواطنِ قبلَه أبى حسنٍ والغصن من حيثُ يخرجُ
كأني أراه والرماحُ تنوشُه شوارع كالأشطان تُدلي وتُخلجُ
كأني أراه إذ هوى عن جواده وعُفِّر بالتُربِ الجبينُ المشجَّجُ[2]

من خلال النمو البنائي للنص نلحظ الوحدة الموضوعية التي جسدها الشاعر على وفق خط تصاعدي ورسم صور تلاحمية فاعلة، ففي هذه الصور البيانية التي كان التشبيه محورها الارتكازي، تشبيه يحيى بالأسد الذي يدافع عن عرينه وأشباله مرة ويهجمُ على أعدائه ويذيقهم الألم والحسرة مرة أخرى، فهو مثل جده المرتضى علي (ع) حيث هذا الفرع من ذلك الأصل. وقوله الغصن دلالة على ثقافة الشاعر الاجتماعية والزراعية بالذات حيث الغصن هو المثمر ولا شيء غيره من أجزاء الشجرة. ومشهد آخر يصوره والرماح تنوشه ويراه وقد هوى عن جواده صورة مشهدية مأساوية تذكرنا بما حدث لجده الإمام الحسين بن علي (ع) في واقعة الطف الأليمة لعل من المفيد القول ان البناء هنا متعدد في رسم ثالوث زماني عملية الدفاع والقتال عن المبدأ وعملية تلقي الضربات الغادرة، وأخيراً الفاجعة "الموت" كل ذلك على شكل مراحل متعاقبة ثم يرسو قارب هذه المرثية الشهيرة عند الاعتقاد بأن الأمل بالله كبير ولابد من انتصار الحق على الباطل ولابد من أن تظفر تلك القلوب الجريحة المهضومة بحقها وتشفي غليلها وتثلج قلوب قوم مؤمنين:

نضارِ فإن الله طالبُ وترهِ بني مصعب لن يسبق الله مُدْلجُ
لعل قلوباً قد أطللتم غليلها ستظفر منكم بالشفاء فتثلجُ[3]

وقال يرثيه في قصيدة آخرى وهي رائية من (68 بيتا):

يا ناعي ابن رسول الله في البشرِ ومُعلنا باسمه في البدو والحضر
لقد نعيتَ امرأً ظلّتْ لمصرعه قواعدُ الدين والدنيا في خطر
لقد نعيت امرأً لم تحى مُكرمةً إلا به، وبه سارت إلى الحُفر
لقد نعيتَ امرأً ما كنتُ أحسبُه ينعاه إلا هوىُ الشمس والقمر
يا ناعي ابن رسول الله مبتهجا لقد تفوهت بالكبرى من الكُبر
لله همةُ يحيى أين وجَّهها لو أنها شيَّعته مُدةَ العُمر[4]

في هذا النص الرثائي يبدأ الشاعر بالنداء المخصص به الناعي الذي حمل مقتل ابن رسول الله وهو يجوب المدينة والبادية ويلجأ الشاعر إلى أسلوب التكرار ولكن هذا التكرار غير ممل بل هو غاية في الروعة التي تؤكد وتصر على أن الحدث كان عظيماً والذي نعاه الناعي كان شريفاً ذا منزلة رفيعة، لذا فإنَّ قواعد الدين والدنيا أصبحت في خطر وكذلك الكرم والمكرمات ثم يخاطب الناعي المبتهج فرحاً بالخبر بأن ما قلته من الكبائر بيد أنه يذكر يحيى وعزيمته وبطولته وثباته على المبدأ. بعد ذلك ينتقل مادحاً مبيناً فضائل أهل البيت الأطهار (عليهم السلام) ومكانتهم عند الله عز وجل إذ يقول:

---

[1] ديوان ابن الرومي: 494/1.
[2] نفسه 495/2.
[3] ديوان ابن الرومي: 500/2.
[4]: نفسه 1137/3.

من تعتصم يده يوماً بعصمتنا ... يمسك بحبل متين غير ذي غَرَرِ
لنا الشفاعة والحوض الرويُّ لنا ... ونحن من خُصَ بالتقديس والطـهّرِ
يا قاتل ابـن علي وابـن فاطمة ... تباً لسعيك في الأيـراد والصـدرِ
يا قاتل ابـن علـي إن قتـلكه ... سيـجني لك المُـرّيّ من الـثمـرِ
بأيِّ وجـه تلاقي الله مـعتذراً ... جلت خطيئتك العظمى عن العُذرِ
خصيمُك الله فانظر كيف تخصمه ... بل أنت أدحض خصم فوك للحـجرِ
لو شاركتك بنو حواء في دمـه ... لكبـكبوا يابن بنت النـار في سـقرِ
ما بعدكم من يزيد في عـداوته ... آل الـنبـي وقتـل السـادة الغُـررِ
عليـكم لعنةَ الرحـمن واقـعة ... في السـر والجـهر والآصـال والبُكرِ[1]

يظهر بشكل جلي في هذه الأبيات الفكر العقائدي الذي يؤمن بـه ابن الرومـي ومسألة العصمة والتمسك بحبل الله المتين، حيث يقول النبي محمد (ص)[2]: (إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي) وإن أهل بيت النبوة هم من خصهم الله بالتقديس والطهارة ولاسيما في آية التطهير "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً"[3]، ولهم الشفاعة يوم الورود على الحوض، ثم يعنف هذا الشقي المتهور الذي قتل العلوي الطاهر وإن فعلته هذه ستجلب له العلقم والخزي فكيف سيلاقي الله وخطيئته عظيمة لا يمكن أن يكون لها عذر وكيف ذلك اليوم حين يكون الخصم هو المولى عز وجل فلعنة الله واقعة لا محال على أولئك القوم الذين قتلوا السادة الغرر سوى كانت سراً أو جهراً وهي مستمرة منذ بدء فعلتهم النكراء.

ثم يختم مرثيته بقوله:

وامنح الود أهل البيت إنـهم ... خير البرية لا بل خيرة الخيرِ
ياليتني كنت فيمن كان شاهده ... حياً وقضيت إذ قضى على الأثرِ[4]

إذ يمنح الشاعر حبه لأهل البيت ويراهم خير الناس بل هم خيرة الخير كله ويتمنى لو كان حاضراً وشهد الموقعة العظيمة التي استشهد فيها أبا الحسين يحيى لكان معه على الأثر.

الواقع ليس من السهولة البوح بهكذا كلام ونصوص رثائية في ذلك الوقت الذي كان بنو العباس يحكمون في بغداد وهم خصوم العلويين وقد أذاقوهم المرَّ العجاف إلا إنَّ ابن الرومي لم يخش على نفسه وكان شجاعاً قوياً صادقاً في هذه النصوص بالذات حيث ليس هناك من مطلب مادي، بل هو يُعرّض نفسه للمشاكل فلو مدح القاتل أو مَنْ كان في البلاط لكسب ودهم ومالهم وهو في أمس الحاجة لذلك ولكنه رثى ومدح أهل البيت (عليهم السلام) وهو يعلم إنه لن يحصل على مال من أحدٍ بل إنه وضع نفسه في حرج وتأزم موقفه مع البلاط العباسي، لكنه الحق المبين والعقل العظيم الذي سيخلده الدهر على مر السنين.

ومن رثائه لأهل بيت النبوة (سلام الله عليهم) قوله في أبي عبد الله الحسين (ع):

وارثُ النجدة عن ذي نجدةٍ ... عُبدَ الله بها دون الوثـن
عن أمير المؤمنين المرتضى ... لكتاب الله حـقاً والسُّنـن
مُرتضى أوصى إليه مصطفى ... وأمينٍ لم يـخالف مؤتمن
لك مـن ميـراثـه نجدتُـه ... وتقاه وهـداه في المـحن
نـجدةٌ يوجـدُ فـما دونها ... منعةَ الجار وإدراك الإحن
أنت مَن أصبحتُ في ذمّـته ... لا أبالي بمـعاداة الزمـن
مَن أبوه لأخي الوحـي أخٌ ... وإبنُ عمٍ ووصـيٌّ وخَتَـن
يابني بنت النبي المصـطفى ... حبكم ينفي عن المرء الظِّنن[5]

النص وإن مال إلى التقريرية في مقدمته فهو يتصاعد فكرياً مع التراص البنائي والانفعال الوجداني ثم يرسو على الإقرار والتصريح العلَني دون خوف أو تردد على أن الشاعر هو من الموالي والموالين للإمام علي بن أبي طالب وأبنائه وإن كلفه هذا التصريح في ذلك الزمن حياته، لان حب أبناء النبي هو اليقين ويدفع عن الناس الظنون والشك لأنهم سفينة النجاة مَن تمسك بهم نجا. ثم يعرج بعد ذلك إلى رسم صورة فكرية ناطقة يتحدث بها عن الموالاة لأهل بيت النبوة (ع) إذ يقول:

بـموالاةٍ لكم صـادقـةٍ ... سلكت مسلك روح في بدن
فهي لي ما دمتُ حياً ملبسٌ ... ومتى ما مِتُّ كانت لي كفن
وأرى فقري وحُبكم غِنًى ... وهُـزالي مع وُدّكم سَمِن[6]

فحبهم هو حب صادق راسخ في القلب مثل الروح في الجسد فإذا خرجت الروح مات الجسد لذا فهو يجسد ويمنح العاطفة الوجدانية التي تربطه مع أهل البيت باللباس الذي لا يستغني عنه فهو هويته ووقايته من كل شيء وهذا اللباس لا يفارقه حتى بعد

---

[1] نفسه 1137/3.
[2] ينظر: صحيح مسلم جـ122/7، سنن الترمذي جـ2/ 307.
[3] الأحزاب/ 33.
[4] ديوان ابن الرومي: 1138/3.
[5] نفسه: 2528/6.
[6] ديوان ابن الرومي: 2531/6.

موته فيكون له كفن فهو قد ضمَّ جسده وروحه بهم لأنه غني بحبهم. وهذه صورة ذهنية حية متحركة تجسد معانٍ ذات دلالات ارتباطية معبرة، يفوح منها أريجُ معطر بعطر النبي وأل بيته الأطهار.

ثم يختم هذه المرثية التي قاربت على الستين بيتاً بهذه الأبيات التي يصور فيها حب آل البيت وارتباطه بهم وهو في صلب أبيه، إذ بدأ بالفعلين (بَرَّني، وغذاني) ليرسم صورة فاعلة حيوية صادقة ويُعرّج على الاستفهام لإشراك المتلقي في الخطاب الشعري واسلوب التكرار اللفظي الذي يمنح النص موسيقى ذات نبرة حزينة لاسيما حرفي (التاء، والميم) فنجد (أنتم، أنتم، أنتم) كذلك (تولّوني، تولّوني) في بيت واحد وذلك ليشد الانتباه لأنه يريد أن يصرح دون لبس أو هوان بأنه من أتباع الهُدى وحجة الدين الذين أوجب اللهُ طاعتهم في كتابه المبين، هم آل بيت النبي الأمين.

بَرَّني معروفكم قبل أبي ... وغذاني برُّكم قبل اللبن
ومتى اختلَّ ابنُ روميكم ... فأياديكم حَرَّى منه قمن
وإذا أنتم وأنتم أنتم ... لم تولّوني وتولّوني فمن
أنا عبدُ الحق لا عبدُ الهوى ... لعنَ الله الهوى فيما لعن
أنا من أبناء أتباع الهُدى ... لست من أبناء أتباع البطن
ديني الحّجةَ لا عاداتُهم ... واختيار الدار لا ألفُ الوطن
والذي قد أوجب الله لكم ... فوق ما أوجبتُ ما أخضّرَ فنن[1]

رثاء أهل البصرة:

هذا الرثاء هو نمط جديد ظهر في الشعر العباسي لم يكن مألوفاً من قبل وقصيدة ابن الرومي في رثاء أهل البصرة (86 بيتاً) هي مرثية ملحمية تاريخية أصبحت سجلا ليس أدبياً وإنما تاريخي وله فيها نقلات حيوية معبرة فهو يبدأ بالحسرة والبكاء على ما حصل للبصرة وأهلها ثم يذكر ما نالهم من الورزّنيني صاحب الزنج وكيف فتك بأهلها وسبى نساءهم وعمد إلى تدمير كل شيء، نجد عملية إظهار مظلومية الناس والمدينة معاً، بعد ذلك ينتقل إلى حث الجمهور عامة والمسؤولين في البلاط العباسي على القيام بدورهم الفعال وهو الثأر ورد الاعتبار، وأقف هنا عند رأي للاستاذ عبد الرحمن شكري حيث يرى أن هذه القصيدة تقترب في موضوعها من قصيدة شكسبير وهي قصيدة رثاء (مارك انطونيوس ليوليوس قيصر) وحث الجمهور على الأخذ بثأره، لذا يقول الاستاذ عبد الرحمن شكري ((تقاربت القصيدتان في نظري أيضاً لمهارة ما أرى فيهما من الأساليب الخطابية، فينتقل القائل فيهما من باعث للشعور إلى باعث، ومن عاطفة إلى عاطفة، ومن حيلة في إثارة النفوس إلى حيلة أخرى ومن حجة إلى حجة))[2].

لعل من المفيد تقسيم القصيدة على خمسة مقاطع يبدأ أولها بقوله:

لهف نفسي عليك أيُّها البصـ ... رةُ لهفاً كمثل لهب الضِّرامِ
لهف نفسي عليك يا معدن الخيـ ... رات لهفاً يُعضُّني إبهامي
لهف نفسي عليك يا قُبة الأسـ ... لام لهّفاً يطولُ منه غرامي
لهف نفسي عليك يا فُرضة البلـ ... دان لهّفاً يبقى على الأعوامِ
لهف نفسي لجمعك المتفاني ... لهف نفسي لعزك المُستضامِ[3]

الجرس الموسيقي والتكرار في حروف الهمس وإظهار الحزن صورة تعبر عن مدى الجزع والألم الذي يعتصر القلب لما آلت إليه الأمور في ثغر إسلامي مهم (مدينة البصرة) ونجد ذلك في لفظتي (لهف نفسي) لذا فالشاعر يبرز قيمة المدينة واهميتها برثاء ممزوج بالمدح ومن خلال هذا التكرار الذي ولد صوتا ظل متناغما ودلالة الحدث واستمراريته ولا يخفى ما للتدوير من اهمية في النص اذ شكل وجوده قيمة حيوية نهضت بالنص صوتيا. لكنه ينتقل في المقطع الثاني الى أظهار مظلومية الناس هناك إذ يقول:

كم أغصوا من شاربٍ بشراب ... كم أغصُّوا من طاعمٍ بطعام
كم ضنينٍ بنفسه رامَ مَنجَّى ... فتلّقوا جبينه بالمسام
كم أخٍ قد رأى أخاهُ صريعاً ... ترب الخدِّيين صرعى كرام
كم أبٍ قد رأى عزيز بنيه ... وهو يُعلى بصارمٍ صمصام
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشا السيف قبل حين الفطام
كم فتاةٍ بخاتم الله بكرٍ ... فضحوها جهراً بغير اكتتام[4]

فأسلوب الاستفهام والتكرار المقصودان زجا المتلقي في النص كي يكون مشاركاً لا مستمعاً فقط، نجد صورا متعددة وانتقالات ذكية ورسما للمأساة التي حلت بالمدينة وكيف أن الزنج لم يراعوا حرمة لطفل ولا فتاة ولا شيخ ولا شارب ولا طاعم، الكل كان السيف نهايته أي القتل وصدى الحروف الصائته في النص طال المعنى العام ويمكن ملاحظة ذلك من خلال الالفاظ (اغصوا ،صرعى ،بصارم ،صمصام).

---

[1]: نفسه 2532/6.
[2] بين شكسبير وابن الرومي، عبد الرحمن شكري، م الرسالة سنة 1936، المجلد الرابع، ص498.
[3] ديوان ابن الرومي: 2377/6.
[4] نفسه: 2378/6

وفي المقطع الثالث هناك إشارة لمظلومية المدينة نفسها إذ يقول:

رُبَّ بيع هناك قد أرخصوه ... طال ما قد غلا على السُّوَّام
رُبَّ بيتٍ هناك قد أخرجوه ... كان مأوى للضعاف والأيتام
رُبَّ قصرٍ هناك قد دخلوه ... كان من قبل ذاك صعب المرام
رُبَّ ذي نعمةٍ هناك ومالٍ ... تـركوهُ مُـحالف الإعـدام
رُبَّ قومٍ باتوا بأجمع شملٍ ... تـركوا شمـلهم بـغير نظام[1]

بعد ما أظهر الحزن والبكاء وصور مأساة الناس هناك وما حل بهم من هؤلاء الغوغاء ورسم ما حل بالمدينة من خراب وانتهاك للحرمات التي كانت صعبة المرام وتهديم البيوت الآمنة، ضغط على الجرح وركز ثقله على إثارة المشاعر وأتخذ الدين ركيزة تدغدغ أحاسيس الناس وأتاح لنفسه أن يكون داعياً أو مرشداً إذ يقول في المقطع الرابع:

وا حيائي منهم إذا ما التقينا ... وهُمُ عند حاكم الحُكام
وا حيائي من النبي إذا ما ... لامني فيهم أشد المـلام
وانقطاعي إذا هم خاصموني ... وتولّى النبي عنهم خصامي
مثِّلوا قوله لكم أيها الـنا ... س إذا لامكم مع اللّـوام
أمتي أين كنتم إذ دعتـني ... حُرّةٌ من كرائم الأقـوام
انفروا أيها الكرام خـفافاً ... وثقالاً إلى العبيد الطّـغام[2]

يظهر الشاعر حياءه يوم الحساب وكيف أن النبي (ص) إذا أنبه بأشد الكلام وكأنه هو الوحيد الذي يتحمل مسؤولية ما حدث للبصرة، ويضع نفسه هنا بمقام رفيع فوق قومه، لذا فهو عليه مسؤولية التبليغ وحث الجمهور وهذا ما قام به بالفعل وهنا يكون قد برء نفسه وأوجد الحجة على قومه الذين سيكونون في موقف حرج مع النبي (ص) لأنهم سمعوا وشاهدوا ما حدث وهناك من الحرائر من استغاثت وصرخت (يامحمداه) ولم يجبها أحد وسكتوا عن تلك الفاجعة، وعليه فالشاعر يطلب الإسراع بنصرة المظلومين وأخذ الثأر من خلال الاقتباس من القرآن الكريم معنى أكثر تأثيراً "انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون"[3].

ويختتم المرثية الملحمة بطلب الثأر ورد الهيبة للمدينة الإسلامية المظلومة إذ يقول:

ادركوا ثـأرهم فـذاك لديهم ... مثلُ ردَّ الأرواح في الأجسام
لم تُقـروا العيونَ منهم بنصرٍ ... فأقروا عيـونهم بانـتـقام
إن قعـدتم عـن اللعين فأنتـم ... شركـاءُ اللّـعين في الآثام
بادروه قبـل الـروية بالعـز ... م وقبـل الإسـراج بالإلجام
من غدا سرجه على ظهرِ طرف ... فحـرام عليه شـدُّ الحـزام[4]

هكذا تكتمل ميمية ابن الرومي في رثاء أهل البصرة بالحث على الثأر ويشبه هذا الفعل برد الأرواح في الأجسام حيث الانتقام وقرة العين من أولئك العبيد وقائدهم اللّعين وإلا فألساكتون شركاء معهم في الآثام ولابد من السرعة في القرار والعزم والمباغتة.

رثاء الأصدقاء:

نلحظ في هذا الجانب أن الذين رثاهم ابن الرومي قليلون مما يدل على أنه كان صادقاً في مراثيه للأصدقاء فهو رثاء مَن كانت علاقته معه جيده ومَن كان كريماً يغدق العطاء عليه، لذا فمن باب رد الدين أو رد المعروف والواجب وقف الشاعر موقفاً خالداً فأين ما أعطى الآخرون وكيف فعل وما رد الشاعر عليهم لذلك أقول ان الشاعر لم يقل مراثيه من أجل الحصول على المال أو المنافع بل قالها من باب الوفاء ورد المعروف لذا كانت مراثيه قليلة إلا لمَن استحقها وهم في ذلك الزمن قليلون. ومن بين هؤلاء أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن يزيد، وقال فيه مرثيتين الأولى (24 بيتاً) والأخرى (152 بيتاً) ومن قوله في الأولى:

كـل نفسٍ لمـوقت ... ليس حيٌّ بمُفلت
مات إسحاق فاستمع ... نعيهُ ثـم أخبت
مات إسحاق فاستمع ... لثنـاهُ وأنصت
مات مَن راح واغتدى ... ذكـرهُ غير ميّت
مات مَن كان للحـقا ... ئـق عين المثبِّت
مات مَن كان للأبـا ... طيل عين المشبِّتت[5]

كلُ نفس لابد أن تذوق الموت الذي لا مفر منه، ويا مَن تستمع إلى نعي إسحاق أنصت وتأمل فعاله التي قام بها فهو ليس ميت فذكره سيبقى خالداً فقد كان للحق رمزاً شامخاً ثابتاً وكان للأباطيل مشتت، يدحضها ويفندها،فهي صورة بيانية كنائية عن

---

[1] ديوان ابن الرومي: 2379/6.
[2]: نفسه 2381/6.
[3] التوبة/ 41.
[4] ديوان ابن الرومي: 2382/6.
[5] ديوان ابن الرومي: 372/1.

أعمال الخير التي كان يقوم بها هل كانت نفسية ابن الرومي بعيدة عن النص السابق؟ أقول كلا لأن التكرار وذكر المرثي وحروف الهمس والتأكيد عليها، يبعث للمتلقي أن هناك علاقة حميمية بين المُرثي والمُرثى وفقد الثاني أثر في الأول تأثيراً كبيراً ويؤكد قولنا ما قاله في الأبيات اللاحقة.

يا أخي يا أبا الحسيـ ... ن صريخ المصِّوت
حل بي فيك مُشمتٌ ... جلَّ عن كلِّ مُشِّمت
كبدي مُذ ذهبت فيـ ... ك بكفَّيّ مُفِّت
نالني فيك من زما ... ني إعناتُ مُعنِت
أنت مَن لم يكن يُنيـ ... لُ نوال المقوّت
خبت يا دخرُ بعده ... فاحى إن شئت أو مُت[1]

تتجلى المعاناة والمأساة التي حلت بالشاعر بعد رحيل المُرثى لأنه كان سندا قويا يعتمد عليه في حياته وقضاء شؤونه والدفاع عنه أمام خصومه فأصبح من بعده وكأن كبده في كفه مُفَّتت وهذه صورة حسية استعارية ناطقة دلالة على الحسرة والألم العظيم فهي خسارة كبيرة . وينهي قوله بتأنيب الدهر فأحيي أو أمت ما شئت،من باب عدم الاكتراث بما سيحصل بعده.

وفي مرثيته النونية الطويلة يظهر كل ما اختلج في أعماقه تجاه المُرثى حيث يقول:

فاقن الحياءَ أبا الحسين فلم يكن ... شيءٌ فريٌّ لم تخلهُ كائنا
إنَّ الحوادث قد غدون فواجعا ... فاشدد إزارك لا يكن فواتنا
لا تنكرن من المصائب ما أتى ... حتى كأنك كنت منها آمنا
ساق الخليلَ إلى الخليلِ فناؤه ... ليكون مدفوناً له أو دافنا
ولقد أقول غداة قام نعيُّه ... هيجت لي شجناً لعمرك شاجنا
مات الذي نالَ العُلا متناولا ... من بعد ما نال العُلا متطامنا
مات الذي أحيا النفوس بيُمنه ... وأمات منها للملوك ضغائنا[2]

هواجس ومشاعر متلاحقة علائقية بعضها بالبعض الآخر أفاض بها النص الشعري الرثائي صورا بيانية متحركة (فاشدد إزارك) (ساق الخليلَ إلى الخليلِ) (أحيا النفوس بيمينه) (صان الدماء) ثم ان في تكرار (مات) دلالة على الفاجعة والخسارة الكبيرة، ولعل الشاعر وهو يختتم مرثيته يبرز فضائل المُرثى ومواقفه تجاه كل ذلك، ثم يقول له خذها أي المرثية وكأنها قطعة من الجنة بما تحمل من الورود والعطور وأكد على فعل (نثرت) فكأن قوله فيه هو مسك طيب الرائحة نثر على قبره:

ما زلت استكفيكَ كلَّ مصيبة ... فتزيلها حتى حسبتُك ضامنا
فانظر أأبلغُ ما بذلت مكافئاً ... واذكر أأعدلُ ما فعلت موازنا
وأمدُّ كفي نحو كلِّ رغيبةٍ ... فتنيلها حتى حسبتك خازنا
أعطيتَ حتى بات بين حلائلٍ ... صردٌ فرشتَ له فراشاً ساخنا
لو كُنت عين المجد كنت سوادها ... أو كنت أنف المجد كنت المارنا
خُذها إليك أبا الحسين كأنها ... قِطَع الرياض لبست يوماً داجنا
نثرت عليك ثناءها فكأنما ... نثرت من المسك الذكيّ مخازنا[3]

وقال يرثي الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر:

إنَّ المنَّية لا تُبقي على أحدٍ ... ولا تهاب أخا عز ولا حشدِ
هذا الأميرُ أتتهُ وهو في كثفٍ ... كالليل من عُددٍ ما شئتَ أو عَددِ
مُعتادةٌ قنص الأبطال شكتُه ... يرى الطراد غداة الرَّوع كالطّردِ
غادرت حوض المنيا إذ شربت به ... عذب المذاق كذوب الفصد بالبردِ
ما متّ بل مات أهل الأرض كُلهم ... إذ بنتَ منهم وكنتَ الروح في الجسدِ
عجبتُ للأرض لم ترجُف جوانبها ... وللجبال الرواسي كيف لم تمدِ
عجبت للشمس لم تكسف لمهلكه ... وهو الضياء الذي لولاه لم تقدِ[4]

إن لم نكن قد أحسسنا في هذا النص باللوعة والحزن العميق بوصفه مرثية فالشاعر صادق حيث يقول في أمير ورجل دولة وصاحب نفوذ في المجتمع، الواقع الذي لا يمكن تجاهله هو أنّ لابن الرومي خصوصية مميزة له تفرده عن باقي أقرانه من الشعراء، وجمالية النتاج ليس في الشكل أو المضمون الذي يتطرق إليه بل في الصورة التي يرسمها وصياغة التركيب ومنهجية التحليل، لكن الحق أقول إنه لم يبتعد عن التقاليد والأعراف والإطار الذي يحويه، إنما براعته ضمن الابتكار الذي يأتي به، وهذا ما نلحظه في الصور البيانية التي قوامها التشبيه والاستعارة في النص أعلاه فالأمير كالليل من عديد السلاح والعتاد وعدد الجنود والحراس كذلك قوله (مُعتادة قنص الأبطال) يعني المنية ثم نلحظ صورا ذوقية حيث الفعل (شربت) وأخيراً تشبيهه بالضياء. وفي مرثية أخرى يقول فيه:

---

[1] نفسه: 373/1.
[2] ديوان ابن الرومي: 2592/6.
[3] :: نفسه 2599/6.
[4] نفسه: 631/2.

بات الأميرُ وبات بدرُ سمائنا هذا يودعِنا وهذا يكسف
لهفي لفقد محمدٍ من هالكٍ ولمثله يتلّهف المتلهَّف
فتكت به الأيامُ وهي عليمةَ أن سوف تُتلف منه مالا تُخلف
ورمته إذ وضع السلاح وطال ما هابته وهو لنبلها مستهدف[1]

وقال يرثي سيَّار بن مكرم ويخاطب أحد أبنائه:

فإن يكُ سيارُ بن مكرم انقضى فإنك ماء الورد إن ذهب الوردُ
مضى وبنوه وانفردت بفضلهم وألفٌ إذا جُمعت واحدٌ فردُ[2]

هنا الرثاء غلب عليه المدح وكأنه يمدح الحي ولا يرثي الميت، وصيغة المزج بين المدح والرثاء في النص الشعري من الأساليب الجميلة التي تمنح النص حرية الاتساع ولا تبقي النص أسير وتيرة محددة مسبقاً.

وقال يرثي محمد بن نصر بن منصور بن بسام:

ذهب الذي ذهبت يداه وفيها للراغبين مناله ومَصال
ذهب الذي نالت يداه من العلا ما لا ينال من المديح مقال
ذهب الذي كان الصيامُ شعاره ولضيفه الإنزال والأكال
فكأنه رمضان في إخباته وكأنه في جوده شوال
ذهب الذي أوصاه آدم إذ مضى بعياله فهُم عليه عيال
أودى محمد بن نصر بعدما ضُربت به في سروه الأمثال
وذخرتُه للدهر أعلمُ أنه كالحصن فيه لمن يؤول مآل
فريته كالشمس إن هي لم تُنل فضياؤها والرفقُ فيه يُنال[3]

النص يفصح بشكل واضح كرم الرجل المُرثى ومدى علاقته مع الشاعر والصدق يتجلى في المرثية إن صح التعبير في باب الوفاء للمعروف الذي كان يحصل عليه ابن الرومي والجميل في النص ليس الجانب المادي وحده الذي ناله الشاعر بل هناك جوانب معنوية كثيرة قد نالها من قبل محمد بن نصر لذا شبهه بالشمس إن هي لم تُنل فضياؤها والرفق فيه يحصل ويسعد به وهذا غاية في براعة التشبيه.

رثاء النفس:

ومن جميل ما قال وهو يرثي النفس الإنسانية مرثيته النونية التي قاربت (59 بيتاً) فهي تشع حكمة ومصداقية لحقيقة الحياة وتدل على إيمان الشاعر بمكر الزمان وغدر الليالي والأيام ويبرز جهل الإنسان وتمسكه بالدنيا الفانية فهو لم يستجب لدعوة الرب الرحيم ولا دعوة الصالحين من العباد بل سار مع الشيطان وهوى النفس التي تعلقت بآمال تخدع صاحبها وهكذا يجري الدهر والآجال تفاجئنا بسرعة جريانها.

مكرُ الزمان علينا غُير مأمون فلا تظَنَنَّ ظنّاً غير مظنون
إنَّ الليالي والأيام قد كشفتْ من كيدها كلَّ مستورٍ ومكنون
نشكو إلى الله جهلاً قد أضرَّ بنا بل ليس جهلاً ولكن علم مفتون
نعصي الإله ونعصي الناصحين لنا ونستجيب لمقبوح وملعون
هوَّى غويٌّ وشيطان له خُدعٌ مُظلِّلاتٌ وكيدٌ غير مأمون
حتى متى نشتري دنيا بآخرةٍ سفاهةً ونبيع الفوق بالدون
مُعللين بآمال تخادعنا وزخرف من غرور العيش موصون
نجري مع الدهر والآمالُ تحلجُنا والدهرُ يجري خليعاً غير معنون[4]

ثم يعرجُ على مفهومية الصراع الأزلي مع الزمان حيث نصارعه جولات وجولات إلا إنه على الدوام يهلكنا ويبقى، بعد ذلك يسخر من عقلية الإنسان لأنه يظن أن المال يخلدهُ وقد أبى من قبل تخليد قارون وهنا استعارة واقتباس من القرآن الكريم وكيف فعل الدهر بقارون وماله فالموت دَين لابد من قضائه أي لا مفر من دفعه وإن تأخر الدفع فلابد بعد العربون من أن تعطي ما عليك. لذا فالشاعر يرثي كل نفس حيث المصير الواحد والنهاية المحتومة.

يبقى ونفنى ونرجو أن نُماطله أشواط مضَّطلع بالجري أفنون
ونجمعُ المالَ نرجو أن يُخلِّدنا وقد أبى قبلنا تخليد قارون
وللموت دَينٌ من الخلاّن كُلِّهم يُقضاه من كل مذخورٍ ومَخزون
وما تأخر حيٌّ بعد ميتته إلا تأخُّر نقدٍ بعد عربون[5]

---

[1] ديوان ابن الرومي: 1584/4.
[2]: نفسه 805/2.
[3] نفسه: 1962/5.
[4] ديوان ابن الرومي: 2462/6.
[5] نفسه: 2466/6.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة مع شعر الرثاء في ديوان ابن الرومي أجدُ أنَّ الشاعر كان صادقاً ورعاً متزناً حيث كانت مراثيه فيمن رسخ حبهم لديه لذا منح كل مرثية من مراثيه أحاسيس وجدانية ودلالات معنوية معبرة عما كانت تجيش به النفس من خلجات، فهو في رثائه الخاص كان مفجوعاً برحيل أهل بيته الواحد بعد الآخر وكانت قمة النصوص الرثائية في هذا الإطار مرثيته في ابنه الأوسط (محمد) الشائعة الصيت، البكاء هنا مزدوج بكاء على مَن رحلوا وتركوه وحيداً يقارع الحياة، فالإحساس بالوحدة هو الذي يجعله يبكي نفسه لأنه خسر الأمل والسند والحنان في آن واحد فهو قد خسر الروح المعنوية أي التي تمده بالقوة ليجابه الحياة. أما في رثائه العام فكانت قمة القصائد في هذا المضمار مرثيته الجيمية الشهيرة في رثاء يحيى العلوي ورثائه لأهل البيت (عليهم السلام) وما حملت في طياتها ما كانت نفس ابن الرومي تختزنه من أحلام ومشاعر تجاه مَن كانوا في الحكم وتجاه أولئك الذين ارتبط معهم عقائدياً، ورثاء الأصدقاء كان من باب الوفاء لأنه خسر الدعم المادي الذي كان يحصل عليه في حياتهم وهم في حقيقة الأمر قليلون، لذا كان قوله فيهم صادقاً نابعاً من عمق المأساة التي حلت به جراء فقدهم، لذا فبكاؤه هنا أيضاً ممزوج بصفتين ولكن هذه المرة خسارة الدعم المادي و يبكيه ويبكي نفسه لوحدته بعدهم.

المصادر:

- ☒ القرآن الكريم.
- ☒ ابن الرومي حياته من شعره، عباس محمود العقاد، مطابع دار الكتاب العربي بمصر محمد حلمي المنياوي- (د.ت).
- ☒ ابن الرومي حياته وشعره، كَتَبَ بحثه إبراهيم عبد القادر المازني، وشَكَّلَ بحثه كمال أبو مُصلح، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت (1407هـ/ 1987م).
- ☒ بين شكسبير وابن الرومي، عبد الرحمن شكري، مجلة الرسالة، المجلد الرابع، السنة الرابعة 1936م.
- ☒ تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، المطبعة البوليسية، طبعة ثانية منقحة ومزيدة 1953م.
- ☒ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، الطبعة الخامسة، دار المعارف 1973م.
- ☒ دراسات في الأدب العربي، إنعام الجندي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت (د.ت).
- ☒ ديوان ابن الرومي، أبي الحسن علي بن العباس بن جُرِيج، تحقيق د. حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، الإدارة المركزية للمراكز العلمية، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب والوثائق العلمية، القاهرة، طبعة ثالثة منقحة (1424هـ/ 2003م).
- ☒ رثاء الأم في الشعر العربي، د. محمد إبراهيم حور، مجلة كلية الآداب- جامعة الإمارات العربية المتحدة- العدد الثاني (1406هـ/ 1986م).
- ☒ سنن الترمذي/ محمد بن عيسى الترمذي- تحقيق إبراهيم عطوة عوض الطبعة الأولى مصر 1962.
- ☒ شرح صحيح مسلم/ الإمام النووي- راجعه الشيخ خليل الميس، الطبعة الأولى، دار القلم، ليبيا 1984.
- ☒ في الأدب العباسي، محمد مهدي البصير، الطبعة الأولى 1949، مطبعة النجاح بغداد.
- ☒ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الرسالة- الكويت (1402هـ/ 1982م).